النسق التراثي في شعر أحمد الخيّال

خديجة عبيس جودة
جامعة القادسية / كلية التربية

أ.د.عبدالله حبيب التميمي
جامعة القادسية / كلية التربية

الخلاصة :

تكتنز النصوص الشعرية كغيرها من الخطابات بأنساق الثقافة المختلفة ؛لتعبر عن ثقافة المجتمعات, و قيمها, و عاداتها ؛ لذا تدور فكرة هذا البحث حول الكشف عن نسق التراث في شعر الخيّال بوصفه نسقاً ثقافياً ظاهراً في ثقافة الكثير من المجتمعات و لا سيما في المجتمع العراقي , فغاية البحث تتمثل في النظر إلى نصوص الشاعر بعيداً عن البلاغة و الجماليات , و الخوض في ما هو ثقافي و اجتماعي يتعلق بتراث المجتمع , و قيم الماضي التي افرزتها أبيات الشاعر ؛ لإظهار مدى تمكن الماضي من واقع الشعوب , مستعينين على ذلك بأليآت النقد الثقافي و المنهج التحليلي .

وقد اَسْفَرت دراسة المجموعات الشعرية عن وجود نسقين فرعيين هما: النسق التراثي الأسطوري , و النسق التراثي التأريخي و بعد الحديث عن الشاعر بشيء من الإيجاز و التعريف بالتراث , شرعنا في تحليل أبيات الشاعر للكشف عن الدلالات النسقية و الجمل الثقافية التراثية الكامنة بين مفرداتهِ فقد استدعى الشاعر الكثير من الأساطير و الشخصيات و الرموز الأسطورية التي تعود لأزمان بعيدة جداً إلا أنَّها لا زالت حاضرة في الواقع , و تعمل بقوة على أدلجة الفكر الجمعي.

و قد أثمر البحث عن مجموعة من النتائج من بينها قيمة الشعر كحامل نسقي لتراث الشعوب و قيمها و اعرافها, و التعرف على أهمية التراث عند المجتمع العراقي, فطالما كان الماضي محط اعتزاز و فخر سعى الإنسان العراقي للمحافظة علية بشتى الوسائل.

The traditional pattern in the poetry of Ahmad Al-Khayal

Khadija Obeis Gouda

Prof. Dr. Abdullah Habib Al-Tamimi

University of Al-Qadisiyah / College of Education

Abstract

Like other discourses, poetic texts are packed with different cultural formats to express the culture of societies, their values, and their customs. Therefore, the idea of this research revolves around revealing the heritage pattern in the poetry of imagination as a visible cultural pattern in the culture of many societies, especially in the Iraqi society. Social related to the heritage of society, and the values of the past that emerged from the poet's verses; To show the extent to which the past has managed the reality of peoples, using the mechanisms of cultural criticism and the analytical method.

The study of poetic groups resulted in the presence of two sub-forms: the legendary heritage pattern, and the historical heritage pattern. After talking about the poet with some brevity and definition of heritage, we set out to analyze the poet's verses to reveal the textual connotations and cultural heritage sentences underlying his vocabulary. The poet was summoned Many legends, personalities and legendary symbols that date back to very distant times, but they are still present in reality, and they work strongly on the ideologization of collective thought.

The research yielded a set of results, including the value of poetry as a systemic carrier of people's heritage, values and customs, and recognition of the importance of heritage in Iraqi society.

أحمد الخيّال الجنابيّ:

ولد الشاعر العراقي المعاصر أحمد جاسم مسيلم مطر عباس الملقب (بالجنابي) في محافظة بابل عام 1968م، وتحديداً في إحدى مدن الحلة المعروفة وهي مدينة القاسم، في محلة القديمة وفي بيت يُعرف ببيت آل مسيلم من بيوتات المدينة المعروفة، وقد اكمل الخيّال تعليمه الإبتدائي عام 1980م ، ثم الثانوي عام 1988 م، ليلتحق بكلية الآداب جامعة بغداد ويتخرج من قسم اللغة العربية فيها بتفوق أهله لخوض رحلته مع الدراسات العليا في جامعة القادسية ماجستير بتقدير(إمتياز) ، ثم الدكتوراه في جامعة بابل عام 2013 م، وكان الخيّال شغوفاً بالشعر والقراءة منذُ سن مبكرة جداً، فكان له مجموعة من المؤلفات العلمية والمجموعات الشعرية كمجموعة (يقظة النعناع) و (أضرحة الماء) و(سبأ أُخرى) وغيرها.

النسق التراثي في شعر أحمد الخيّال:

لطالما اهتمّ الإنسان بالماضي وشكّل عنده مرجعاً في الكثير من أمور حياته ، فراح يستدعي تراثه مستعيناً به على حاضره ، ومستعداً به للمستقبل ، ((فما زال التراث القديم بأفكاره وتصوراته ومُثُلِهِ موجّهاً لسلوك الجماهير في حياتها اليومية ، أمّا بعاطفة التقديس في عصر لا يسلك فيه الإنسان إلّا مادحاً ، أو بالارتكاز إلى ماضٍ زاهر ، تجد فيه الجماهير عزاءً عن واقعها المضني))[1].

فالاعتزاز بهذا التراث كان دافعا دائماً لتخليده عند الشعوب بمختلف الأزمان ، ولا سيما في عصرنا الحاضر .

وتكمن أهمية التراث في الحياة العامة للإنسان بكونه يمثل جذوره الممتدة في أعماق الماضي بكل ما يحمله من انتصارات وهزائم يستمد منها ما يشعره بالانتماء والفخر ، كما يشكل له الماضي صورة مبطنة للحظاته الراهنة ، فهو بمثابة جسر يربط الماضي بالحاضر، ومن ثمّ المستقبل ، ويستلهم منه ما يُناسب تجاربه الحياتية المختلفة ، وفاقاً لبيئته وظروفه[2].

فالتراث بكل أنواعه يشكّل قيمة حضارية تعود بالفائدة على الأجيال المتلاحقة ، بالإضافة إلى ذلك فإنّ عملية استدعاء التراث ما هي في الحقيقة إلّا استدعاء للقيم والفضائل التي يحملها ذلك التراث ، وبما يشكله للأجيال من عبرة وحكمة تستقيم بها نفوسهم وعقولهم، ولو نأتي على تعريف التراث فهو في أبسط تعريفاته ((ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة ، فهو إذن قضية موروث وفي الوقت نفسه قضية معطى حاضر على عديد من المستويات))[3]. فالتراث تماشياً مع هذا المفهوم هو الموروث الذي وصلنا من الأجداد عبر الحقب الزمنية المختلفة ، والعصور السحيقة من التاريخ ، سواء كان موروثاً مادياً أو غير مادي .

والشاعر بوصفه فرداً إنسانياً ومجتمعياً كثيراً ما يتكأ على حوادث تراثية ، ويستدعي الماضي لإيصال قيمة أو فكرة معينة ، أو هو جزء من الاعتزاز بهذا التراث ، محاولاً بذلك تخليده عبر الزمن ، وضمان ديمومته ، ((فالشاعر يقوم بدور جوهري في تحقيق الحضور الدائم للتراث في وجدان الجماهير وعقولهم))[4].

فعملية استدعاء التراث عند الشاعر وغيره تهدف إلى لفت الأنظار لما يحمله هذا التراث من قيمٍ فكرية وروحية صالحة للبقاء والاستمرار ، كما يساهم في إثراء التجارب الإنسانيّة ، فالشاعر ينتقي من تراث أمّته والأمم الأخرى بعض التجارب ، فيستعيرها من سياقها الماضي ويدمجها في نصوصه الشعرية ؛ تصريحاً أو تلميحاً بصورة لفظية أو معنوية ، ويحملها المزيد من الدلالات في سياقها الحاضر ، وبعض المواقف المعاصرة ، ممّا يؤدي بدوره إلى تكثيف الدلالة لتُضاف دلالة الماضي إلى دلالة الحاضر[5].

فالتراث لا يمكن تحديده بأنّه عملية دراسة للماضي الموجود في المتاحف والأماكن التراثية التي تكون دراستها من اختصاص علماء الآثار ، بل هو جزء لا يمكن إغفاله من الواقع ومكوناته النّفسية[6].

وتأسيساً على ذلك كان للشاعر دور واضح في ديمومة هذا التراث وتناقله عبر الأجيال ، وكان الخيّال من الشعراء الذين تصدوا لعملية استدعاء التراث في تجاربهم الشعرية ، فجاءت قصائده بحمولات كثيرة من الأنساق التراثية الأسطورية والتاريخية .

أولاً: النّسق الأسطوري:

تعد الأساطير موروثاً شعبياً لا يكاد يخلو منه شعبٌ من الشعوب ، فلكل شعبٍ موروثه الأسطوري الذي شكّل انطلاقته الأولى نحو التفكير في وجوده والأشياء من حوله ، ((فالأسطورة وسيلة حاول الإنسان عن طريقها أن يضفي على تجربته طابعاً فكرياً ، وأن يخلق من حقائق الحياة العادية معنًى فلسفياً ، ودون هذه الصورة الأسطورية تكون التجربة مهمشة ، كما يقتصر على أنّها مجرد ظاهرة ، فالأسطورة عملية إخراج الدوافع الداخلية في شكل موضوعي))[7].

ومن الملاحظ أنّ هذه الأساطير تدور حول موضوعات من صلب الحياة الإنسانية ، بل هي العوامل الأساسية في تكوين الواقع الإنساني ، وتعرّف الأسطورة بأنّها: ((حكاية تسودها الخرافة المرتبطة بالواقع الإنساني ، وفيها تجسيد لأشكال يتداخل فيها الواقع والمتخيّل))[8]، وتماشياً مع هذا التعريف فإنّ الأسطورة لا تخلو من واقعية في الطرح ، وتكمن واقعيتها في كونها ترتبط بتساؤلات الإنسان حول الوجود ، وما تقدمه من قيم وأخلاق موجّهة للسلوك الإنساني ، يُضاف إلى ذلك إنّ بعض الأساطير هي في الأصل أحداث حقيقية أضاف لها الإنسان أبعاداً خيالية بتواتر الزمن ، فالأسطورة كما يرى الدكتور فراس السواح ((هي نظام فكري متكامل ، استوعب قلق الإنسان الوجودي وتوقه الأبدي لكشف الغوامض التي يطرحها محيطه ، والأحاجي التي يتحداه بها التنظيم الكوني المحكم الذي يتحرك ضمنه))[9].

وتعقيباً على ذلك فالأسطورة تمثل محاولات الإنسان الأولى للنّظر بعمق اتجاه هذا الكون الواسع ، وهي تقدم صورة واضحة عن تساؤلات العقل الإنساني ، كما أنّ ((للأسطورة وظيفة نفسية ترتبط بأحلام البشر وتصوراتهم الرمزية ، وترمز إلى تجارب الإنسان النّفسية في الحياة ، وإلى مخاوفه وآماله ، فهي بوصفها الصورة المجسدة للتجربة الإنسانية في احتكاكها بمختلف أشكال الحياة))[10].

وبالنّظر للقيمة الثقافية للأسطورة وما تتركه من أثرٍ في العقل الجمعي بات توظيف الأسطورة في الشعر العربي المعاصر ظاهرة فنية أخرجت الخطاب الشعري من المباشرة إلى طور الخيال والكونية[11].

وقد شكّلت الأسطورة نسقاً ثقافياً ظاهراً في الشعر عامّة ، وشعر أحمد الخيال خاصّة ؛ إذ يعكس استخدام الأسطورة في النّص الشعري عمق ثقافة الشاعر ، ومدى تجذر الأسطورة في اللاوعي الجمعي ، حتى باتَ من الممكن ملاحظة البعد الأسطوري في الكثير من معتقداته وطقوسه الروحية والجسدية في مختلف جوانب الحياة ، وكان الشاعر الخيّال حريصاً على الموروث المجتمعي والإنساني ، فالأساطير العراقية البابلية والآشورية كان لها حضورٌ في نصوصه الشعرية ، كقوله وهو يبيّن قوّة وعظمة عشتار وخلود أسطورتها الطويل، وهي رمز لتاريخ العراق الحضاري العميق ، يقول[12]:

ليل عشتار أطول من التاريخ
نافذة واحدة ...

تطل على العالم

فحكاية عشتار(*)، وإن كانت صغيرة ، لكنّها كبيرة بما تحويه من عمق إنساني وتساؤل عن الكثير من جوانب الحياة ((فالأسطورة هي القاسم المشترك الأعظم لجميع ألوان الخلق الوجدانية))[13].

وبوابة عشتار التي هي من المعالم الحضارية في مدينة (بابل) مدينة الشاعر الخيّال ، فالشاعر ينقل هذا التراث باعتزاز ليُظهر أثر الثقافة وأثر البيئة المكانية في نصه الشعري ، فيقول[14]:

وبابل القديمة
تستعد للاحتفال بسبي الملائكة
وأنتِ نذرُ الصمتِ على بوابة عشتار
تتهيئين للنّزول

يحكي النّص بعض الطقوس التي تدور في أسطورة عشتار في التقاليد البابلية القديمة ، كالاحتفال بسبي الملائكة ونزول الآلهة (عشتار) إلى العالم السفلي ، فالممارسات الطقوسية موغلة في القدم عند الشعب العراقي ، وهي جزء من ثقافته ، وهذه الطقوس ما هي إلّا ((تمظهر للحالة الانفعالية التي تعيد التوازن للإنسان المنتهك))[15]، وما نراه اليوم هو امتداد لهذه الممارسات ، وإن اختلفت في الشكل ، فلم تختلف في بعض المضامين ، وهذه الطقوس تقوم على عملية التكرار مستهدفةً تلك الزوايا العميقة في اللاوعي عند النّاس ، وبذلك فهي تشكّل دوافع لكل الأعمال التي يقوم بها الفرد في المجتمع[16].

ويقول الشاعر في نصٍ آخر[17]:

تمسح عن وجنتيكِ الباردتين
خشوع الحزن
وبلادة الجمال
أشبه بجدار صامت
رُسمت عليه صورة لعشتار

ممّا عُرف عن الآلهة (عشتار) قوّتها وعنفوانها ، فهي قد جمعت بين الجمال الأنثويّ والخصوبة والقوة ، فالشاعر يجمع بين هذه الصفات ليجعل منها محركاً لبلادة الحزن والسكون ، فثورة (عشتار) المرأة المتمكنة لها أثرها في الحياة العامة ، وخير دليل على بقاء أثر الأسطورة في سايكلوجية المجتمع ما نلحظه من حزن مستديم في نفسية الفرد العراقي ، والذي أصبح سمةً في الشخصية العراقية ، ولهذا جذر أسطوري ؛ حيث اتخذ المجتمع من البكاء على (دوموزي)(*)كما يقول الدكتور ناجي الركابي فرصة لكي يتواءم مع حاجته للبكاء من قسوة الطبيعة وهيجانها الفجائي ، ومعاناته من قسوة الحياة ونكباتها[18].

وفي نصٍ آخر غزير بالدلالات الأسطورية يقول الخيّال[19]:

فلقد أصبح غلاف ملحمة كلكامش
أثمن منه
يا صديق البرد والماء والصهيل
كحلُ إبريقك السومري
نجا من طوفان القصب

لقد وردت في النّص جملٌ ثقافية ، مثل (كلكامش والطوفان) ـ وهما من الأساطير التي تتداولها الأجيال عبر الحقب الزمنية المختلفة ؛ فـ (كلكامش) أو (جلجامش)(*)الملك أو الإله في الأسطورة العراقية كان رمزاً للطغيان والسيطرة على شعب (أوروك) المدينة البابلية ، وهو يمثل محور الشر ، يقابله محور الخير المتمثّل بالشعب المظلوم الذي ينتظر المنقذ ، وهي فكرة متجددة في الوعي الإنسانيّ ، فثنائية الخير والشر تتكرر في المجتمعات ، كتكرر الأسطورة على ألسنتهم ، وفي تراثهم وتاريخهم ؛ إذ يعمل ((التوكيد النّصّي الأسطوري والتكرار الطقوسي على إشاعة عدوى وجدانية كافية لكي تتورم الذات الفردية ، وتصبح كلية ينصهر الفرد من خلالها في روح المجموعة ، وتكون ناطقة باسمه وصانعة لهويته ، ويكون ذائباً في تضاريسها الفانتازية))[20]، إذ تعمل الأسطورة على برمجة الفكر المجتمعي وتعزز وجودها في البنية المجتمعية ؛ لذلك فليس من العجب أن نجد بعض الطقوس الأسطورية تمارَس في المجتمع حتى وقتنا الحاضر .

أمّا (الطوفان)(*)فهي أسطورة تداخل فيها الواقع والمتخيّل ، فقد وردت في الكتب الدينية تحكي قصة نبي الله نوح (عليه السلام) ، أمّا النّصوص الأسطورية منها فقد وردت في أماكن كثيرة ، وتدور الفكرة الرئيسة فيها حول النّجاة واستمرارية الحياة ، وهلاك الشر وانتصار الخير ؛ فالشاعر يستثمر الخزين الإشاري والمعرفي لهذه النّصوص الأسطورية ليعبّر عن بيئته المتمثلة بالجنوب العراقي ، ذاكراً أبرز ملامحه في النّص ، ولا سيما الماء ، فعلاقة الإنسان العراقي بالماء تكاد تكون علاقة أزلية ومتجددة بشكل مستمر، وهذا ما يؤكّده الدكتور ناجي الركابي بقوله: ((إنّ ارتباط الشعب العراقي بالماء ينتمي في جذوره إلى أصول بدائية في تاريخ بلاد ما بين النهرين ، فعلى الرغم من أنّ الفيضان المدمر يكاد يكون فوبيا أزلية ربما تجعل العراقي ينفر من الماء ، إلّا أنّنا نجد الدلائل الثقافية في الوعي العراقي تشير إلى عكس ذلك ، الأمر الذي جعل من الإنسان العراقي رفيقاً ورديفاً للماء ... وصار العراقي في كل العصور كأنّما يتجذر إلى ما كان ينشده النّص الأسطوري القديم ، ويتماثل معه))[21].

وفي قول الشاعر: (أصبح غلاف ملحمة كلكامش أثمن منه) سخرية من الواقع ، وهذا ما يحدث عندما يكون التغنّي بالماضي أغلى من الحاضر ، ووفاقاً لما تقدم فالشاعر استعان بالنّص الأسطوري لتكثيف الدلالة ، كما أنّ الأسطورة كانت مترسخة في وعي الشاعر وثقافته ، فشكلت جزءاً من هذا الوعي ، فللأسطورة سلطة عظيمة على وعي النّاس حتى باتوا يتداولونها في مجالسهم ، وتأخذ مساحة كبيرة من أحاديثهم اليومية[22].

وتتكرر جملة (الطوفان) عند الشاعر ، لتضيف للنّص دلالات ثقافية أخرى فيقول[23]:

كان الضبابُ نبتةً سماويةً
والمطرُ لحنٌ سومري أغرق متاحفنا
وأنتَ ... تدسُّ في جيب ليلك برد العنبر
وجداراً اتهمه الطوفان بالخيانة
وألماً ...
يُربي عصافيره في حقولي

جمع النّص بين التاريخ والأسطورة ، وبين الحقيقة والخيال لتنتج بذلك كثافة دلالية ولدتها ثقافة الشاعر بتاريخه وبيئته ، وسيطرت على النّص سوداوية واضطراب، ولدتها الأفعال (اغرق ،اتهمه ،الخيانة) وهي في الحقيقة تمثل واقع الشاعر المضطرب وغير المستقر على مدى سنوات متعددة ، أمّا كلمة (العنبر) فهي علامة دالة على الجنوب العراقي الذي شكّل العنبر في حقوله سمةً تميّز بها عن بقية أنحاء العراق ، ويعد الجنوب

العراقي أكثر ارتباطاً بالحكايات الأسطورية ، وربما كان السبب في ذلك البيئة الجغرافية المائية والحياة التي تتسم بالبساطة ، إضافةً إلى الجذور الأسطورية التي يعود إليها المجتمع والعمق التاريخي الطويل .

ويعود الشاعر في سطور أخرى للتعبير عن ألم الواقع ومعاناته متخذاً (أنكيدو) ، وهو من الشخصيات الأسطورية الرافدينية رمزاً لهذا الألم في قوله(25):

مات الثوار
أبي كان ينحت على مرمرٍ فضّي
رغبة أنكيدو
يا ليلُ ...
إنّنا ننتظر ..
ثورة الأنابيب ...
خارج رحم البلاد

فالشاعر يظهر يأسه من الثورة الداخلية على السلطة بشيءٍ من الحسرة والخيبة ، ولا يُخفي تبرمه من انتظار ثورة لا تأتي ، وقد وصفها بـ (ثورة الأنابيب) التي جاءت من الآخر الغريب ، فإنّ أمانيه بثورة داخلية بدت بعيدة المنال ، كرغبة أنكيدو(*)في الخلود الذي سعى إليه كثيراً من دون جدوى ، والشاعر هنا استدعى الماضي ليكون مثالاً للواقع المرير الذي يعيشه ، فثقافة الشاعر ومجتمعه بدت جلية في النّص .

واستخلاصاً ممّا تقدّم فقد بدا واضحاً دور الأسطورة ، بوصفها ظاهرة ثقافية في أدلجة الفكر الإنساني ؛ فهي من المرجعيات الثقافية التي استند إليها الشاعر لإثراء تجربته الشعرية، معبّراً بها عن خلجات نفسه ومشاعره اتجاه حوادث بلاده وبيئته ، كما شكّلت الأسطورة نسبة كبيرة من وعي المجتمع ، فكان لها الحضور في الكثير من جوانب حياته .

وقد تداول النّاس الأسطورة بوعيٍ أو من دون وعي ، وبطريقة مباشرة وأخرى غير مباشرة من خلال وجود بصماتها في بعض ممارساتهم ، وقد شكّل التراث بشكل عام مصدر اعتزاز وفخر للمجتمعات الإنسانية ، كما يعد حفظ هذا التراث والتمسك به جزءاً من أمانة الإنسان ووفائه اتجاه بلاده وجماعته الإنسانية .

ثانياً: النّسق التاريخي:

لكل شعبٍ من الشعوب تجاربه التاريخية الخاصّة بمختلف أشكالها ، فقد تكون أماكن أو رموزاً تاريخية أو حوادث أو غير ذلك ممّا يتم تداوله من خلال الأجيال والحقب الزمنية ، فهي تثري حياتهم مستمدين منها ما يسند واقعهم على الصعيد المادي والمعنوي ؛ فالإنسان ليس بمنأى عن الماضي ، فهو امتداد حقيقي له ، وحقل تجاربه الذي يُثري حاضره ، ((فالتاريخ هو علم يُبحث فيه عن الزمان وأحواله وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته))(25)، فما يصلنا من أخبار الماضين ، ومغامراتهم وحروبهم وأعمالهم وثقافتهم ما هو إلّا من عمل التاريخ والمؤرخين ، فغاية التاريخ هو نقل قيم الشعوب وثقافاتهم المختلفة ، فتصبح عبرة وعِظة للإنسان في الحاضر، مستفيداً منها في تقويم حياته وسلوكياته المختلفة.

أمّا التاريخ بالنّسبة للشاعر فهو مرجع من مراجع الثقافة والمادة الخام التي يمتح منها الأحداث والشخصيات والرموز التي تُنمّي تجاربه الذاتية على صعيد الواقع والشعر ، فالشاعر يعمد إلى توظيف التاريخ وأحداثه وشخصياته ؛ للتعبير عن قيمة معيّنة يود إيصالها ؛ فهو يشتغل على ما توفر له من معطيات تراثية(26).

ولأنّ ((الخطاب الثقافي هو الشفرة الثقافية المتوارثة التي تمارس تأثيراً فاعلاً في عملية التفكير واستنطاق الواقع))[27]فقد أفصح خطاب الخيّال الشعري عن ثقافة الشاعر ووعيه التاريخي من خلال استخدامه للأماكن والرموز التاريخية التي كثّفت دلالات النّص ، وبيّنت الخلفية التاريخية للمجتمع واعتزازه بتراثه وماضيه .

ومن هذه الاستخدامات قوله في البيت الآتي[28]:

من آدم البدء اقترفنا حبّه وطناً ونخلاً صامتاً يتكلّمُ

فالشاعر استند على شخصية دينية وتاريخة وهي شخصية النّبي آدم (عليه السلام) ؛ ليبرهن على أبدية حبّه لوطنهِ ، وهذه الشخصية هي رمز لبداية الخليقة في الثقافة المجتمعية.

وفي بيت آخر نجد الشاعر يستحضر شخصية الإمام الحسين (عليه السلام) ، وهي أكثر الشخصيات حضوراً في وعي المجتمع العراقي ؛ فهي من الشخصيات ذات الحضور المتجدد ، فيقول[29]:

لهم في كربلاء مثالُ صبرٍ وجنّوا في الحسين هوى وقُرباً

فكلمات مثل (كربلاء ، الحسين) تشكّل تاريخاً خالداً في الذاكرة الجمعية ، وجزءاً لا يتجزأ من ثقافة المجتمع وقيمه وأعرافه السائدة ، وهي نسق ثقافي ديني وتاريخي ، ولأنّ الثقافة كما يقول الدكتور ناجي الركابي: ((هي المنبع الأول للخطاب ، كما أنّ الخطاب يُديم سلطة الثقافة))[30] فلا غرابة أن نجد الشاعر يضمّن أبياته هذه المفردات ، فالشاعر هنا ناقل لثقافة مجتمعه ، وعامل على دوام سلطتها .

ثمّ نجد الخيّال في أبيات أخرى يستدعي معالم حضارية تاريخية متأصلة في ثقافة المجتمع ، ولطالما شكّلت رموزاً يستمد منها الشعب العراقي قوته وحماسه في الكثير من المواقف ، ومن هذه المعالم (أسد بابل)[*]الذي يرمز للقوة والهيمنة ، كما ورد في أبيات الشاعر[31]:

وعين الرجل الذي نزل إلى القعر
نظرت إلى الأرض ...
ما زال أسد بابل
ممسكاً بلبوته

ويعتز سكان العراق عموماً بجذورهم التاريخية القديمة التي لا تزال حاضرة في تقاليدهم وأعرافهم على مستوى اللغة والفكر ،ومن أمثلة الحضور التراثي التأريخي في قيم المجتمع وأعرافه نجد مثلاً عادة إرتداء الحجاب وتغطية الشعر كاملاً قد نصّ عليها القانون البابلي ، لتكون علامة مميزة للمرأة الحرة ، كما نجد بعض تقاليد الزواج ومظاهر العمران التي لا تزال أنساقاً حاضرة في المجتمع العراقي الجنوبي على وجه الخصوص ، كعمل (الكوخ) ، أو ما يسمّى بـ (الصريفة) في الريف العراقي ، والتي يتم بناؤها من الأغصان المتشابكة ، وتغطى بالقش ، وتسند بالطين ، وهي طريقة بناء تعود إلى العصر البابلي[32].

ونستشف ممّا تقدم أنّ حضور التاريخ في ثقافة المجتمع العراقي شكّل نسقاً ظاهراً ماثلاً في الوعي الشعبي العراقي ، وكان الشاعر الخيّال أميناً في نقل مكتنزات الوعي المجتمعي من خلال استدعاء رموز ومعالم وشخصيات تاريخية في بنائه الشعري.

ويستمر الشاعر بإحضار تاريخ العراق وحضارته القديمة والمعاصرة ، إضافةً إلى التراث الغربي ، كما في الأبيات الآتية[33]:

وأنا أدفن النّظريات النّقدية في شارع المتنبي[*]
لا شيءَ يقف أمام الرّغبة

لكي أرمم بيتي
عليّ أن انسى ابتسامة الموناليزا
على وجه قصيدتي الجديدة

تتمظهر في النّص جملٌ ثقافية استمدها الشاعر من الموروث الحضاري الشعبي ، متمثلةً بكلمات (شارع المتنبي ، الموناليزا) ، فـ (شارع المتنبي) يُعد رمزاً ثقافياً لمدينة (بغداد) يرتاده طلاب العلم والمعرفة ، وهو معلم حي في المدينة ، تنتشر فيه المكتبات ، وتُقام فيه الفعاليات الثقافية ، وأمّا (الموناليزا)(*)فهي من معالم الثقافة والتراث الغربي ، فلم يكتفِ الشاعر بالتعبير عن إرث مجتمعه ، بل راح يستدعي الثقافة الغربية في إشارة من الشاعر إلى الاعتزاز بكل ما يعدّ إبداعاً إنسانياً فنياً .

ويواصل الشاعر عملية استدعاء التراث والمعالم التاريخية في نصوصه الشعرية ، كما في الأبيات الآتية(34):

قرب هتافات تصعد وحيدةً من حناجر جنود نصب الحرية
جواد سليم لم ينتبه لشجرة البرتقال
ولا لتلفُّتي في ظلالِ عينيها
لكنّه انتبهَ
لتلك الدبابةِ الزنجيةِ
وهي تَكْبُرُ في شارع المتنبي

تبدو في النّص كلمات مثل (نصب الحرية ، جواد سليم ، شارع المتنبي) ، وهي جمل ثقافية استقاها الشاعر من الإرث الثقافي البغدادي ، وهي معالم شاخصة في بغداد ؛ فـ (جواد سليم)(*)النّحات العراقي المشهور ، و(نصب الحرية)(*)الذي شكّل نقطة انطلاق للكثير من ثورات الشعب العراقي في العصر الحديث ، يشكلان علامة فارقة في ثقافة البغداديين ، وقد اتخذ العراقيون من (نصب الحرية) رمزاً للقوّة والتحرر والوقوف بوجه الظلم ، فمن عادة الشعوب التغنّي بإرثها الحضاري ، كما أنَّها تتخذ من ماضيها القريب والبعيد مثالاً يُحتذى به ، تعود إليه كلّما شعرت أنّ الحاضر لا يلبي مطامحها ، فتعود إلى ذلك الماضي في محاولة منها للتعويض عن حاضرها ، أو تستقي منه ما يُعينها على إصلاح واقعها ، والشعب العراقي من الشعوب التي تعتز بإرثها الحضاري ، ويكون محط اهتمامها سواء كان هذا الإرث مادياً أو معنوياً حتى أنّ هذا الإرث يكون حاضراً في الكثير من جوانب الحياة اليومية .

وفي أبيات أخرى يقول الدكتور الخيّال(35):

في فمي طعم العشب وقوة القصيدة
أفرُّ من المطر ... من بكاء الأميرة الوحيدة
من حائطها المبكى ... من تابوت سليمان
من خطى كاربنتير الضائعة
من تاج المتنبي ... من بضاعةِ أبي تمام الصالحةِ
للتعليب

وردت في النّص جملٌ ثقافية كـ (حائط المبكى ، وتابوت سليمان ، وكاربنتير ، والمتنبي، وأبي تمام) ، وهي رموز تاريخية ، منها ما هو مشترك ويشكّل رمزاً عند المسلمين وغيرهم كـ (حائط المبكى)(*) الذي سمي عند المسلمين بـ (حائط البراق) ، ويذكر الشاعر رموزاً بارزة في الثقافة الغربية ، كـ (كاربنتير)(*)، والثقافة الشعرية

العربية كـ (أبي تمام) و(المتنبي) ، ربما أراد الشاعر من ذلك التذكير بوحدة الرموز الإنسانية ؛ كونها مصدراً من مصادر الإلهام والإبداع الإنساني .

وتأسيساً على ما تقدم يبدو أثر الثقافة التاريخية جلياً في حياة الشعوب ، وقد شكّل التراث التاريخي نسقاً ظاهراً في شعر الدكتور أحمد الخيّال ، ولم يقتصر وعي الخيّال على الثقافة العراقية ، فقد وجدنا في نصوصه أثراً لثقافات عديدة ، وما وردَ من تراثٍ في نصوص الشاعر كان خالداً في ذاكرة المجتمع يستمد منه قوته في مختلف الحقب التاريخية ، كـ (نصب الحرية) وشخصيات (المتنبي ، وأبي تمام ، وجواد سليم، وغيرها) ، ولأنّ الشاعر رسول مجتمعه وثقافته ، فليس من الغريب أن نجد مثل هذا التراث في نصوص الخيّال الشعرية ، وما نراه من نسقٍ ثقافي فهو نتاج تراكم ثقافي شكّل بصمته عبر الزمن ، ليجد له حضوراً في أدب الجماهير وحياتهم .

الهوامش

1() التراث والتجديد ، حسن حنفي ، ط4 : 16 .
2() ينظر: استدعاء الشخصيات التراثية في شعر حسين زيدان ، سعيد دياخ ، 2015م: 10 .
3() التراث والتجديد: 13 .
4() استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، د. علي عشري، ط1 ، القاهرة: 25 .
5() ينظر: الرمز ودلالته في القصيدة العربية المعاصرة ، يوسفي سهيلة، الجزائر ، 2012م: 108 .
6() ينظر: التراث والتجديد: 15 .
7() البعد الأسطوري في الشعر العربي المعاصر ، تفاحة بلبزوح، الجزائر ، 2012م: 18 .
8() جماليات توظيف الأساطير الرافدينية ، سلوى محسن الطائي وآلاء رشيد ، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية ، مجلد 27 ، عدد 6 ، 2019م: 230 .
9() مغامرة العقل الأولى ، د. فراس السواح ، ط1 ، 1996م: 19 .
10() تجليات الرمز التاريخي عند محمود درويش: 21 .
11() ينظر: توظيف الشعر للأسطورة ، سعدي بو علام ، تونس ، 2012م: 1 .
12() مكان آخر ... نصوص تسعينية: 23 ،احمد الخيّال .
(*) عشتار: وهي من الأساطير العراقية القديمة ، وتسمّى عند السومريين باسم (أنانا) آلهة الحبّ ، ابنة الملك (سن) ـ ويعادلها عند الأغريق (فروديت) ، وعند الرومان (فينوس) ، وهي إلى جانب كونها آلهة للحب والخصب ، فإنّها آلهة للحرب والمعارك . ينظر: مغامرة العقل الأولى: 378 .
13() الرمز ودلالته في القصيدة العربية: 33 .
14() مرايا الأنهار ... تبتكر الوقت: 103 .
15() الأساطير المؤسسة للعقل الثقافي العراقي: 69 .
16() ينظر: سيكولوجية الجماهير ، غوستاف لوبون ، ترجمة وتقديم: هاشم صالح ، ط1 ، 1991م: 133 .
17() يقظة النعناع: 74 .
(*) دوموزي أو تموز في الأساطير البابلية هو إله راعٍ تزوج من الآلهة (أنانا) آلهة الخصب والنّماء ، وله دور المحرك للأحداث في الأساطير ، لا سيما في مشاركته للآلهة (عشتار) في الحزن على الإله الغائب: ينظر: مغامرة العقل الأولى: 381 _ 382 .
18() ينظر: الأساطير المؤسسة للعقل الثقافي العراقي: 53 .
19() مرايا الأنهار ... تبتكر الوقت: 82 .
(*) جلجامش: وهو ملك سومري يمثل السلطة الدينية المتمثلة بالإله (أنليل) ، وعُرف بسطوته وجبروته ، كما حازت شخصيته على صفات لاهوتية ، و تمثلت أبرز أحداث أسطورته برحلة الخلود مع صديقه (إنكيدو) الذي كان غريمه وعدوه الأول سابقاً ، فكان حزنه على (إنكيدو) حدثاً مهمّا في الأسطورة. ينظر: المسكوت عنه في ملحمة جلجامش ، د. ناجح المعموري ، ط1 ، 2014م: 15 .
20() الأساطير المؤسسة للعقل الثقافي العراقي: 71 .

(*) الطوفان: من الأساطير القديمة التي شاعت في العالم بين دول لا يربط بينها مكان أو زمان ، ونص الطوفان السومري الذي عُثر عليه في مدينة (نفر) في وسط العراق على هذه الأسطورة ، كما وردت أساطير الطوفان اللاحقة في بابل وسورية وبلاد الأغريق ، وفي كتاب التوراة ، وكلها تدور حول فكرة جوهرية ، وهي قرار إلهي شامل بالتدمير بواسطة الطوفان واختيار منقذ لعدد صغير من البشر والحيوانات يشكلون ديمومة الحياة واستمراريتها. ينظر: مغامرة العقل الأولى: 157 .

21() الأساطير المؤسسة للعقل الثقافي العراقي: 52 .

22() ينظر: الرمز ودلالته في القصيدة العربية: 138 .

23() نهارات شطبتها التقاويم: 24 .

24() يقظة النعناع: 90 .

(*) أنكيدو: وهو من الشخصيات الأسطورية ، ويعد غريماً لـ (جلجامش) في الأسطورة البابلية وخصمه الأول الذي خلقته الآلهة (أروروا) مبعوثة من الآلهة (عشتار) ، وبعد صراع دام طويلا بين (جلجامش) و(أنكيدو) تعاهدا أن يكونا صديقَين وفيين لبعضهما مدى الحياة ، فيبدآن رحلتهما معاً للبحث عن الخلود ، فتنتهي الرحلة بمأساة موت (أنكيدو). ينظر: الأسطورة توثيق حضاري ، جمعية التجديد الثقافية ، ط1 ، 2009م: 46 .

25() المختصر في علم التاريخ ، محي الدين الكافيجي ، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين: 55 .

26() ينظر: الرمز التاريخي عند محمود درويش ، بوسبعين نصيرة ، رفاد سهام ,الجزائر ، 2015م: 25 .

27() الأساطير المؤسسة للعقل الثقافي العراقي ، ناجي عباس الركابي: 22 .

28() صلاة الماء والقمح: 72 .

29() المصدر نفسه: 68 .

30() الأساطير المؤسسة للعقل الثقافي العراقي: 21 .

(*) أسد بابل: وهو من القطع الأثرية المهمة في مدينة (بابل) ، ويعود إلى العصر البابلي ؛ إذ تتجسد في النّصب هيأة أسدٍ يجثم على جسدٍ بشري ، وهو رمز للقوة والسيطرة . ينظر: أسد بابل وقصته ، يارا مجدي (مقال) ، 12 ، يناير، الموسوعة العربية الشاملة .

31() يقظة النعناع: 73 .

32() ينظر: الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور ، جورج كونتنيو ، ترجمة: سليم طه التكريتي ، وبرهان عبد التكريتي: 24.

33() يقظة النعناع: 119 _ 120 .

(*) شارع المتنبي: سُمّي الشارع باسم الشاعر أبي الطيب المتنبي عام 1932م ، وقبله سمّي بتسميات متعددة ، كشارع حسن باشا ، وسوق السراي وغيرها .

(*) الموناليزا: وهي لوحة شهيرة من أعمال الفنان الإيطالي (ليوناردو دافنشي) رسمها عام (1503م) أثناء إقامته في (فلورنسا) وهي لسيدة تدعى (موناليزا جياكوندا) وهي زوجة لأحد التجار الأثرياء ، وقد قضى (دافنشي) أعواماً كثيرة في رسمها مكرساً إمكانياته الفنية والعبقرية لذلك . ينظر: الاتجاه التجريبي عند ليوناردو دافنشي ، د. محمود محمد علي ، 2019م: 30 .

34() مرايا الأنهار ... تبتكر الوقت ، د. أحمد الخيّال : 106 _ 107 .

(*) جواد سليم: وهو فنان تشكيلي عراقي من مواليد عام 1919م ، قام بتصميم نصب الحرية في بغداد .

(*) نصب الحرية: وهو نصب صاغه الفنان العراقي جواد سليم وافتتحه عام 1961م .

35() يقظة النعناع ، د. أحمد الخيّال ، 2015م : 118 _ 119 .

(*) حائط المبكى: يقع هذا الجدار في مدينة القدس ، وهو جزء من الحرم الشريف ، وقد شكل هذا الجدار نقطة خلاف دائمة بين اليهود والمسلمين في فلسطين ، وقد قام اليهود بمحاولات عديدة للاستيلاء عليه مدّعين بتبعيته للتراث الديني اليهودي. ينظر: حائط البراق ، د. زينب عبد العزيز ، تقديم: د. علي جمعة ، ط1 ، 2001م .

(*) كاربنتير: روائي وقاص وأديب عالمي من مواليد كوبا عام 1904م ، اشترك في تأسيس الكثير من المجلات التي اهتمت بالأدب الكوبي ، كما نال الكثير من الجوائز العالمية ، وله أعمال روائية من بينها (مملكة هذا العالم) ، و(عصر الأنوار). ينظر: المكان معادلاً لتحولات الشخصيات ، د. هبة صلاح ، المجلد 92 ، مجلة المجمع العلمي المصري: 178 .

المصادر والمراجع

- الاتجاه التجريبي عند ليوناردو دافنشي :د. محمود محمد علي، ، دار الوفاء، الإسكندرية، 2019م.
- الأساطير المؤسسة للعقل الثقافي العراقي ناجي عباس الركابي، ط1، دارتموز، دمشق، 2012م.

- استدعاء الشخصيات التراثية في شعر حسين زيدان (دراسة لنماذج مختارة) : رسالة ماجستير، سعيد دباخ، 2015م.
- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر :د. علي عشري زايد، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م.
- أسد بابل وقصته :(مقال) ،يارا مجدي الموسوعة العربية الشاملة، 12 يناير، 2020م.
- الأسطورة توثيق حضاري:جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، ط1، دار كيوان، البحرين، 2009م.
- البعد الأسطوري في الشعر العربي لمعاصر (عبد الوهاب البياتي نموذجاً) : رسالة ماجستير، تفاحة بلبزوح، الجزائر، 2012م.
- تجليات الرمز التأريخي عند محمود درويش (قصيدة مأساة النرجس ملهاة الفضة نموذجاً) : رسالة ليسانس، بوسبعين نصيرة، رفاد سهام، جامعة البويرة، 2015 م.
- التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم :د. حسن حنفي، ط4، المؤسسة الجامعية، القاهرة، 1992م.
- توظيف الشعر للأسطورة في ضوء الدراسات العربية المعاصرة :رسالة ماجستير، سعيدي بوعلام، تونس، 2012م.
- جماليات توظيف الأساطير الرافدينية في أعمال محمود عجمي :(بحث) سلوى محسن الطائي، الآء رشيد، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، مجلد 27،عدد6، 2019م.
- حائط البراق: د. زينب عبد العزيز، تقديم: علي جمعة، ط1، 2001م.
- الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور: جورج كونتنيو ،ترجمة :سليم طه التكريتي، وبرهان عبد التكريتي، ط2، دار الشؤون الثقافية، بغداد ،1986م.
- الرمز ودلالته في القصيدة العربية المعاصرة(قراءة في الشكل خليل حاوي نموذجاً) : رسالة ماجستير، يوسفي سُهيلة، الجزائر، 2018م.
- سيكولوجية الجماهير: غوستاف لوبون، ترجمة هاشم صالح ،ط1،دار الساقي، 1991م.
- صلاة الماء والقمح :مجموعة شعرية، أحمد الخيّال، ط1، دار الصواف، 2020م.
- المختصر في علم التأريخ: محي الدين الكافيجي، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، ط1، عالم الكتب، 1990م.
- مرايا الأنهار... تبتكر الوقت :مجموعة شعرية، أحمد الخيّال، ط1، دار الصواف، 2020م.
- المسكوت عنه في ملحمة جلجامش: د. ناجح المعموري، ط1، دار المدى ،2014م.
- مغامرة العقل الأولى (دراسة في الأسطورة) :د. فراس السواح، ط11، دار علاء، دمشق، 1996م.
- مكان آخر... نصوص تسعينية :مجموعة شعرية قيد الطبع، أحمد الخيّال الجنابي.
- المكان معادلاً لتحولات الشخصيات:(بحث)، د. هبة صلاح، مجلة المجمع العلمي المصري، المجلد، 92.
- نهارات شطبتها التقاويم :مجموعة شعرية، احمد الخيّال، ط1، النخبة 2018 م.
- يقظة النعناع :مجموعة شعرية، أحمد الخيّال، ط1، دار الفرات ،2015م.